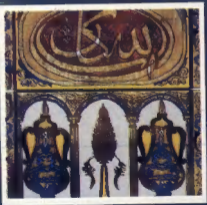


تواند الامتاع
NYROUF

الامتاع والمؤانسة

لأبي حيان التوحيدي

د. زكي نجيب محمود



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥



مهرجان القراءة للجميع ٩٥ مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك
(الرائدة الاجتماعية)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلي

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الإنجاز الطباعي والفني
محمود الهندي

بالصرف العام

د. سمير مهران

الإمتاع والمؤانسة
لأبي حيان التوحيدي
د. زكي نجيب محمود

كان أبو حيان التوحيدي بائنا في حياته وبعد مماته . أما في حياته فقد عاش فقيرا . وأما بعد موته فلم يجد من المؤرخين من يترجم له ترجمة والية . وذلك برغم امتناع أفاقه وعمق أغواره . حتى ليعد الفيلسوف الأديب المعبر عن ثقافة النصف الثاني من القرن الرابع الهجري : فاسمع هذه الرسالة الحزينة التي يختم بها الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة . موجهها أباهما إلى صديقه أبي الوفاء الهندس الذي كان له فضل تربيته من الوزير أبي عبد الله العارضي وهو الوزير الذي قيلت في حضرته أحاديث السمر الثماني التي جمعت في كتاب الإمتاع والمؤانسة - اسمع هذه الرسالة الحزينة التي يختم بها أبو حيان كتابه هذا . فهو يقول : « خلصني

أيها الرجل من التكف ، أنقذني من ليس الفقر ، أطلقني
من قيد الضر ، اشمروني بالأحسان ، اعتبني بالشكر ..
أكفني مؤونة الغذاء والعشاء : إلى متى الكسيرة الميايسة
والبقيلة الزاوية ، والقبيص المربع ؟ إلى متى القادم
بالخير والزيوت ؟ أجبوني هاتني مكسور . اسفني
فائتي صد ، أعشني فائتي ملهوف ، شهورني هاتني غفل ،
حلني فائتي عاطل : قد أذلني الصفر من بلد إلى بلد ،
وخذلني الوقوف على باب باب ، ونكرني العارف بي ،
وتباعد عني القريب مني

ولعل أبا الوفاء المهندس قد استجاب إلى استغاثة
أبي حيان فأغاثه ، بأن قدسه إلى الوزير أبي عبد الله
العارض ، فجعله الوزير من سمارة ، وسامره أبو حيان
ثمانى وثلاثين (١) : وبعدئذ طلب أبو الوفاء من أبي حيان

(١) في نسخة الكتاب التي أصدرها المرحومان الأستاذان أحمد
أمين وأحمد الزين ، نكويات أربعون ليلة ، وفي النسخة التي كتبتها
الأستاذ أحمد أمين ورد أن للهايمي مدحا سبع وثلاثون ، لكنني عدتها
فوجدتها ثمانى وثلاثين ، ذلك أن الليلة الأولى والثانية عشرة قد
أدجبتا في ليلة واحدة ، ثم جاء العدد الترتيبي بعد ذلك يقول : الليلة
الثالثة عشرة ، ولم تذكر الليلة الثانية عشرة ، وقد بلغ العدد المختصم
في النشرة السالفة الذكر : أربعين ليلة ، فإذا طرحت الليلة الحادية
عشرة المسمية في العشرة ، والليلة الثانية عشرة المتروكة ، كان العدد
ثمانى وثلاثين ، هذا من حيث عدد الليالي بحسب تقسيم الكتاب
أما من حيث عددنا من حيث الحاشية ، فقد كتبت : على حسابي -
تسعة وثلاثين ، وهذا ، لأنه لو كانت ليلة أبي حيان

أن يستعمل كل ما دار بينه وبين الوزير ، وهكذا فعل أبو
حيان . فكان من ذلك هذا الكتاب الذي نقيسه .

وقد حقق الأستاذ أحمد أمين في مقدمته لهذا الكتاب
شخصية هذا الوزير وانتهى إلى أنه هو الوزير أبو عبد
الله الحسين بن أحمد بن سعدان ، وزير صمصام الدولة
البويهي ، وقد استقرره صمصام الدولة سنة ٢٧٢ لما تقلد
الأمر بعد وفاة أبيه عضد الدولة ، وظل ابن سعدان في
الوزارة إلى سنة ٢٧٥ : وقد كان له إبان وزارته ندوة
يجمع فيها العلماء والأنباء ، منهم ابن زرعه الفيلسوف
النصراني ، ومسكويه ، وأبو الوفاء الهندي (الذي قرب
أبا حيان من مجلس الوزير) .

وأما ابن الوفاء الهندي ، الذي من أجله كتب كتاب
الامتاع والمؤانسة ، فقد قال عنه ابن خلكان ، إنه أحد
الأئمة المشاهير في علم الهندسة ، وله قيسه استخرجات
غريبة لم يسبق بها ٠٠٠ وكانت ولادته سنة ٢٢٨ بمدينة
بوزجان وقسم العراق سنة ٣٤٨ ، وتوفي سنة ٣٧٦ ،
وعاش هذا التاريخ يعلق الأستاذ أحمد أمين بقوله ابن
خلكان قد ذكر أنه نقل تاريخ الوفاء هذا من شيخه ابن
الثير ، ولكن الذي في ابن الثير أنه عد وفاته في حوانش
سنة ٢٨٧ فاما أن ابن خلكان أخطأ في النقل أو أن الناقض
أخطأ في الكتابة .

وإنه ليقال أن أبا حيان قد ألف نحو عشرين كتاباً .

لكن لم يبق منها الا عند قليل . منها كتاب « الهوامل
والشوامل » (نشرة الأستاذان أحمد أمين والسيد أحمد
صقر) و « الصداقة والصديق » و « البصائر والفخائر »
(نشرة الأستاذان أحمد أمين والسيد أحمد صقر)
و « المقاييس » و « الاشارات الالهية » (نشرة الدكتور
عبد الرحمن بدوي) - وكتاب « الامتاع والمؤانسة »
الذي تقدمه بهذا المطال . وقد ألفه لابن سعدان - كما
قلنا - سنة ٢٧٤ . ولطاهر ان سبقها تأليفا هو الهوامل
والشوامل (راجع مقدمة أحمد أمين للهوامل والشوامل
- ص : ١) وتبعه الامتاع والمؤانسة . ثم الصداقة
والصديق . واما الذخائر والبصائر فقد ذكر في مقدمته انه
بدأ به سنة ٢٧٥ وأنه بعد خمسة عشر عاما . ثم جاء
كتاب المقاييس . لأنه ذكر الهوامل والشوامل في
المقاييس . وقد ألب الصداقة والصديق للوزير
سعدان ايان وزارته - وزارته من ٢٧٢ الى ٢٧٥ .

يدور الدور في كتاب الامتاع والمؤانسة على ليال .
لكل ليلة موضوع رئيسي يحده الوزير بسؤال يلقيه
لكن مرعان ما يستطرد ويتشعب ليتناول امورا كثيرة
منوعة . وغالبا ما يختتم « بملحة وراح » . وحينما يلي
مرجع مريح لأهم ما دار من احاديث خلال الليالي
الثلاثين .

- على الليلة الاولى جرى الدور حول ستة الحديث .
وخصائص الحديث الجيد . وخلاصة الرأي هنا ان الحديث

الجيد هو الذي يجرى على أحكام العقل ويشتمل على
 فكاهة ، ويكون ذا جدة وطرافة ؛ وإن الاتصافان ليسا
 من كل شيء إلا من الحديث الطلى ؛ ففي المعاصرة تلتقي
 للعقول ، وترويح للقلب ، وتسريح للنفس ، وتنتقيح للألب ؛
 وأما الموضوعات العرفية التي تناولها الكلام في الليلة
 الأولى ، فتعديلات لغوية تفرق بين معنى كلمة ، عتيق ،
 ومعنى كلمة ، فنيهم ، وذلك بمناسبة المقارنة بين الحديث
 الذي يكون فيه جديد والحديث الذي ينكر القديم ؛ والتعجب
 كله منوط بالحديث ، وأما التعظيم والاحلال فهما لكل
 ما فهم ؛ وكذلك تتناول أبو حيان بالتعديد معاني
 هذه الكلمات : حادث ، ومحدث ، وحديث ؛ وأخيرا غنم
 الليلة بملحمة الوداع ، وهي نكتة من بقاء بني جدارا
 لرجل ، وبينما هما مختلفان على الأجر ، سقط الجدار ،
 فقال الرجل للبقاء : هذا عملك الحسن ؟ فقال البقاء
 وهل أمنت أن يبقى الجدار قائما ألف سنة ؟ فأجاب الرجل :
 لا ، ولكن كان يبقى إلى أن تستوفي أجرتك .

- ويورد حديث الليلة الثانية حول شخصيات بارزة
 حلت في العلم والأدب ، يصفهم أبو حيان الوزير ويقول
 رأيهم فيهم ، فمنهم أبو سليمان المنطلي الذي يقول عنه :
 « أما شيخنا أبو سليمان فإنه أتقهم نظرا ، وأكرمهم
 غرضا ، وأصفاهم فكرا ، وأظفرهم بالنذر ، وأولقهم على
 الضرر ، مع تطلع في العبارة ، ولكنه ناشئة من العجمة ،
 وقلة نظر في الكتب ، وحرط استبداد بالظاهر ، وحسن

استنباط للعريض ، وجراة على تفسير الرمز ، وبخيل
بما عنده من هذا الكنز .

ومنهم ابن زوجه ، فهو « حسن الترجمة ، صحيح
النقل ، كثير الرجوع الى الكتب ، محمود النقل الى
العربية ، جيد الوفاء بكل ما جل من الفلسفة » ومنهم
ابن الخمار ، وابن السمع ، والقومى ، ومسكويه الذى
يسفه بقوله : « فخير بين اختيار » وعين بين ابيفاء ،
لأنه شاذ . . . ومنهم عيسى بن على ، ونظيف ، ويحيى
ابن يحيى ، ويقول عنه : « انه مشهور للترجمة ودينه
العبارة » ولكنه كان متأنيا فى تخريج المختلفة . . . - (أى
فى تخريج الفضائل المختلفة . . .)

فطلب منه الوزير أن يحدثه عن آراء هؤلاء العلماء
فى « النفس » فاجاب أبو حيان بفصل القول فى ذلك ،
وخلص ما قاله أنهم متفقون على أن النفس جوهر خالده ،
وكان من أدق ما قاله كذلك فى العلم بمسائل الحكمة انه
وسط بين اليقين الكامل وبين اليأس من المعرفة . وكذلك
قال فى علم الطب انه وسط بين الصواب والخطأ . وفى
الحياة انها وسط بين السلامة والمطب ، وكذلك فرق أبو
حيان بين العلم والتعليم . « فالعلم ضرورة المعلوم فى نفس
المصالح ، وانفس العلماء عالمه بالفعل ، وانفس المتعلمين
عالمه بالقوة » والتعليم هو إبراز ما بالقوة الى الفعل .
والتعليم هو بروز ما هو بالقوة الى الفعل . - وختمت
الخطبة بأربعة أبيات فى المنزل .

وفي الليلة الثالثة يدور الحديث عن بعض رجال
السنن ، فيهرام ، رجل مجوسى معجب نعيم ، لا يعرف
الوفاء ولا يرجع الى حفاظ ، وابن كنفيا ، رجل نصرانى
ارعن خسيس ، ما جاء يوما بغير قط لا فى رأى ولا فى
عمل ولا فى توسط ، هكذا .

- وتدور الليلة الرابعة كلها تقريبا على الحديث
عن ابن عباد ، يسال الوزير ابا حيان رايه فى ابن عباد
وما يقال فى نفع احيانا ، فيقول ابو حيان ، ان الرجل
كثير المحفوظ حاضر الجواب فصيح اللسان ، ويمضى
فى تحليل شخصيته تحليلا مصعبا ، ويقول عنه انه يمدح
نفسه بشعر ثم يعطيه لمن يلقيه كأنما هو شعر قيل فيه من
سواه ، فهو محب للثناء للدرجة الامراف ، وهو مزيج من
عقل وحس ، ويأخذ ابو حيان فى مقارنته بابن العميد ،
ويصف ابن عباد بعرض النفس ، فتلنس امراض كأمراض
البشر ، وهكذا أعطانا ابو حيان صورة مفصلة عن
جوانب ابن عباد ، فضائله وعيوبه ، وما ورد فى هذه
الليلة كذلك ذكر لأعلام العلماء والأدباء وما يعقار فيه كل
منهم ؛ فالخليل فى العروض ، وأبو عمرو بن العلاء فى
اللسان ، وأبو يوسف فى القضاء ، والامسكانى فى الموازنة ،
وابن نويخت فى الآراء والديانات ، وابن مجاهد فى
القراءات ، وابن جرير فى التفسير ، وأرمطو طاليس فى
المنطق ، والكندى فى الجوهر المفرد (الجزء الذى لا يتجزأ) ،

وابن مهران في العبارة ، وأبو العيلاء في النهاية . وابن
أبي خالد في الخط . والجاحظ في الحيوان . . الخ .
ومن أصل ما جاء في حديث هذه الليلة ، قول أبي
حيان بضرورة التثقيف لمن يتصدى للكتابة الأنيسة مع
التواضع في تقديره لنفسه . قال : « ليس شيء أتفع
للمنكر من سوء الظن بنفسه . والرجوع إلى غيره . ولن
كان دولة في الدرجة . وليس في الدنيا محبوب (أي ليس
ليها أحد) إلا وهو محتاج إلى تثقيف . والمستمن أحزم من
المستبد . . » ومن لطيف ما قاله في التفرقة بين كتاب
يكتب وحديث يقال . أن الكاتب لا يشطع له خطاه أن
يكون قد أسرع في الكتابة . فليس يعلم القارئ أسرع
في كتابة ما كتبت أم أبطأت . وإنما ينظر أصبت فيه أم
أخطأت وأحسننت أم أسأت . »

ـ وفي الليلة الخامسة عود إلى الحديث عن ابن
عباد . ثم الحديث عن أبي اسحق الصابي : أما ابن عباد
فقد نجح رغم غيبه لأن أحدا لا يقول له أخطأت . فمن
كان مجبورا جعل الناس خطاه حواجا . وأما أبو اسحق
الصابي فإنه أحب الناس للطريقة المستقيمة . . وإنما
ينقم عليه قلة نصيبه من النحر . »

ـ وأما الليلة السادسة فحديثها عن خصائص الأمم :
فالفرس تقلدي ولا تبتكر . والروم لا يحسنون إلا البناء
والهندسة : والصين أصحاب صنعة لا فكر لها ولا رواية .
والترك سباع المهراش . والهند أصحاب وهم وشبهة .

وأما العرب فقد علمتهم المعرفة التفكير . وساعدتهم بيئتهم
على قوة الملاحظة . وهم ثروا قيم خلقية عليا .

ومن رأى ابن حيان أن الفضائل موزعة بين الأمم .
وإذا وصفت أمة بفضيلة أو برزية فلا يكون ذلك إلا على
سبيل التعميم في القول . ولذلك إذا أردت مقارنة بين
أمة وأمة وجب أن يفاضل بين الكمال في كل منهما أو بين
الناقص في كل منها : وإن تعصب الاتصاف لقومه ليجهل
عن المعدير عليه أن يقول أي الأمم الفضل من سواء .
فلكل أمة عصر تعلق فيه ثم يجرى عصر آخر فتعلو أمة
أخرى . وهكذا . وليس من الاتصاف أن نقارن أمة
بأمة مسبوقة بأخرى أبان هبوطها .

على أن ابن حيان يعود فيخص العرب بالثناء .
ويتناول بحديثه اللغة العربية فيقول إنه استعرض غيرها
من اللغات فلم يجد في أي منها (تنوع العربية) أعلى
الفرج التي في كلماتها . والفضاء الذي نجد بين حروفها .
والمسافة التي بين مخارجها . الخ . : ويتصدى أبو
حيان لما قاله الجيهاني في تم العرب . ليتولى الدفاع
عنهم أمجد دفاع وأبلغه .

- وهي الطيلة السابعة مقارنة بديمة بين علم الحساب
والبلاغة أيهما أنفع - أو قل بين العلوم الرياضية والفنون
الإنشائية - فقد كان هناك من فضل الأولى على الثانية .
لأن الأولى جد والثانية مزل . والأولى مستندة إلى مبدء

موصولة بغاية وحاضرة الهندى ، أما الثانية فموصولة
وحيدة ، والأولى شبهة بإغاء والثانية شبهة بالمراتب
ولئن اختلفت القول بكاتب واحد ، فلا يكتفيها عانة محاسب .

وهو أبو حيان بقوله لا غنى للمحاسب نفسه عن
الانضمام : وإن البلاغة مستندة إلى عقل ، لأن بها تقام
للحجة : فهي تبدأ بالنكار عقلية ثم تمر خلال الفاظ ، وأخيرا
تستلزم في خط : وأما أن القول يكتفيها منشاء واحد فليس
حجة على شيء ، لأننا نحتاج إلى خياطين أكثر مما نحتاج
إلى أطباء ، ولا يدل ذلك على أن صناعة الطب بون صناعة
الخياطة ، وليس صحيحا أن الكلام الملهون يؤدي المعنى
لأن المعنى يتغير دائما بتغير الأعراب .

- أما التهمة الثانية فقد رويت فيها مناقشة فلسفية
عقيدة عتيقة كانت قد دارت بين أبي سعد السيرافى وأبي
بشر متى بن يونس الفخارى فى حضرة الوزير ابن الفرات
عن المطلق اليونانى والنحو العربى (وهى مناقشة وردت
أيضا فى كتاب المقاصد لأبي حيان التوحيدي) وخلاصة
الرواية أن الوزير ابن الفرات كان قد بنى مجالسه ذات
يوم أن كان بينهم من يستطيع أن يتصدى لمناظرة أبي بشر
حتى فى المنطق ، فإنه يقول أن : لا حيل إلى معرفة الحق
من المباطل والباطل من الكذب والخير من الشر والحجة
من الضمة والشك من اليقين إلا بالمنطق : فاستجاب
أبو سعد السيرافى لدعوة الوزير ثم واجهه حتى فقال :

عندئذ عن المنطق فما تعني به ؟ فقال متى ؟ انفتح به أنه
 آلة من آلات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من مقيومه ،
 وفاسد المعنى من صالحه . كالميزان ، فاني أعرف أنه
 الزحاحان من التقصان ، فقال أبو سعيد يريد أن تلك آلة
 صحيح الكلام من مقيومه يعرف بالاعراب المعروفة إذا كنا
 نتكلم بالعربية ، وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل إذا
 كنا نبحث بالعقل . وكانما أبو سعيد يريد بذلك أن يقول
 أن ضرورة المنطق وحدها لا تعني . إذا لابد من معرفة
 حقائق اللوازم المرتبطة بعضها ببعض مثلك الضرور ، والتشبيه
 بالميزان بغيره . لأن من الأشياء ما لا يوزن ، وإذا كان
 المنطق الأرسطي علما لمن يتكلم باللغة اليونانية فليس هو
 بلزم لمن يتكلم العربية .

فيمر

فيمر متى قائلا إن المنطق يعني بالمعقولات ، والناس
 في المعقولات سواء . فأربعة وأربعة تساوي ثمانية عند
 اليونان وعند العرب وعند غيرها من الأمم على السواء ،
 فيمر أبو سعيد إلى الكلام قائلا : إن التشبيه بأربعة
 وأربعة وإنما تساوي ثمانية عند كل الأمم هو تشبيه لا يؤدي ،
 لأن حقائق الرياضيات بيّنة ، على خلاف المطلوبات بالعقل
 والمذكورات بالخط ، على أننا إذا كنا نعني بالمعقولات
 تلك المعاني التي يوصل إليها باللغة الجامعة للأسماء
 والأفعال والحروف ، فقد لزمّت الحاجة إلى معرفة اللغة ،
 فكيف تدرس منطق اليونان دون لغتهم ، فضلا عن أننا
 نقول المنطق اليوناني عن اللغة المصطنعة ، والمعاني إنما

بصحبها التحول عند الترجمة من لغة إلى لغة ؟ وهذا يقول أبو بشر حتى إن الترجمة عن اليونانية تكفيها في هذا المسند . ويعود أبو سعيد إلى طرف قائلا : المرحى أن الترجمة تكفيها في ذلك . فهل اختص اليونان دون سواهم بالفضل ؟ اليس العلم مفسدا بين الأمم ؟ اليس اليونانيون كغيرهم من الناس يصيبون ويخطئون . ومع ذلك فليس واضح المطلق أمة بأسرها . بل هو رجل واحد . هذا إلى أن منطق لم يظهر من العالم شيئا . لأن الأمر مرهون بالضرورة . وحال الناس من حيث الفطرة هي بعد ظهور المنطق كما كانت قبل ظهوره . لذا نعلم أن عقول الناس متفاوتة فكيف نزع أن في وسع المنطق أن يسوي بينها جميعا ؟

ويسأل أبو سعيد متأخرا فيقول : هل في وسع المنطق الأرسطي أن يملأ على معنى حرف اللواو في اللغة العربية ؟ فقال له حتى : هذا نصر وليس هو من شأن المنطق . فأجابه أبو سعيد بأن المنطق هو نصر والنصر هو منطق . فإذا كانت المعاني متشابهة بين الأمم . فلا تكون يونانية ولا عربية . وإنما يكون الاختلاف في اللغة التي يعبر بها كل قوم عن تلك المعاني . إذن لغزاسة اللغة لا مندرجة عنها . ويضرب أبو سعيد مثلا بالحرف في اللغة العربية : اللواو والهاء وحرف . في . فلكل منها أحكام تخص بها قواعد اللغة العربية . ولهمت هي

محتاجا للحل اليوناني ، مما يبين أنه لا سند للمنطقي من دراسة اللغة التي بها يكون التفكير ، فالنحو يمس المعاني ولا يقتصر أمره على اللفظ .

أنه بغیر حادة الفكرة لا يوصل إلى حل لأي مشكلة . فالمنطق في صوريته المجردة لا يرفع خلافاً بين متناهزين ولا يؤدي بصاحبه إلى معتقدات معينة . وخلاصة القول عند أبي سعيد السهرافي أن دراسة المنطق دون دراسة اللغة العربية لا تجدي نفعا .

وبعد الفراغ من هذه المناقشة الفلسفية ينتقل الحديث في تلك الليلة الثامنة إلى وصف لشخصية أبي سعيد السهرافي وإلى آخرين غيره كآبى علي القنوي ، وعلي بن عيسى وطائفة من الشعراء ، ثم يتناول الحديث مسكويه ، وابن نباتة وغيرهما ، فكانما هي سهل حافل بحركة عظمة ثقافته واسعة المدى .

وفي الليلة التاسعة أوصاف بليغة لسنوف الحيوان وما تتميز به . وكيف أن صفات الحيوان موجودة مثلها في الإنسان ، إذ في الإنسان وحسده تنهض صفات الحيوانات كلها ، فهو إذن مختلف عنها لا بالتروح ولكن بكمية ما فيه من صفات ، تجتمع فيه وتفرقت في الحيوان . الفلسيع والفأرة صفة الكسوف ، واللذئب صفة الثبات ، والخنزير صفة الحذر ، وهكذا ، وانظر مثلاً إلى الصفات

التي لا بد من توافرها في القائد تجدها كلها مما يتصرف به الحيوان أيضاً : « ينبغي للقائد العظيم أن يكون فيه حذر خصال من ضروب الحيوان : صياد البوك ، وتجنن الدجاجة ، ونجدة الأسد ، وحملة الخنزير ، وروغان الثعلب ، وصبر الكلب ، وحراسة الكوكبي ، وحذر الغراب ، وغارة اللب ، وسمن ، يعروا ، - وهي دابة بطراسان تنمن على الذهب والفضة » .

نعم أن من أهم ما يفرق بين الحيوان والإنسان أن الأول يعمل مدفوعاً بالهام على حين أن الثاني يعمل بعد اختيار إرادى منه ، لكن للإنسان من الهيام الحيوان نصيباً ، كما أن للحيوان من اختيار الإنسان نصيباً .

وتكرر أبو حيان أن للإنسان نفساً ثلاثاً : النفس الغائفة ، والنفس الغضبية ، والنفس الشهوانية . وأن لكل نفس منها أخلاقها ، فمن خصصت النفس الغائفة أن تبحث عن حقيقة الإنسان والكون واقعاً ، وبذلك من وظائفها أن تضبط موازج النفسيتين الأخريين ، وبعد ذلك أخذ أبو حيان يتناول الفضائل وأصداها واحدة واحدة ليحدد مقوماتها وعناصرها ، فمثل الحذر وما القبيح ؟ ما الصواب وما الخطأ ؟ ما الخير وما الشر ؟ ما العدل وما الجور ؟ ما الشجاعة وما الجبن ؟ الخ .

ويختتم أبو حيان القول في الاختلاف بأن يصنف
القائن من حيث أخلاقهم بحسب أمزجتهم ، فإذا غلبت
الحرارة على الإنسان كان شجاعا بذلا ملتبها سريعا
الحركة والغضب قليل العقدة زكى الطاهر حزين
الأنراة .

وإذا غلبت عليه البرودة كان قليلا غليظ الطباع
ثقل الروح .

وإذا غلبت عليه الرطوبة كان لين الجانب مريح
النفس سهل الثقل كثير النسيان .

وإذا غلبت عليه اليفوسنة كان متأبرا ثابت الرأي
حسب القبول .

ومما هو جدير بالذكر من هذه التيلة أن أبا حيان
يذكر فيها أنه قد أضاف من عنده عند الكتابة ما لم يرد في
غضون الحديث ، وذلك استكمالا للموضوع .

— وفي الليلتين العاشرة والحادية عشرة قريء بحث
عن خصائص الحيوان ، منها ما هو فسيولوجي ومنها
ما هو متجمل بالطباع .

- وفي الليلة الثالثة عشرة (٢) ترى بحث فلسفي عن النفس ، فهي تعمل بغير عضو خاص (من أعضاء البدن ، ولذلك فهي لا تعتمد بفساد البدن ، هي جوهر لا مادي ، وغير قابل للمقاييس الكمية ، يتنقل البديوث إلى الحركة ، فهي إما من داخل : وعندها تكون إما حركة داخلية متواسلة وإما حركة داخلية تعسك أحياناً ، أو من خارج : وعندها تكون إما حركة بالمضغ من خلف أو بالجور من أمام ، وحركة الجسم للإنسان إنما تكون بفعل نفس ، وإن فالنفس حية ، وهي جوهر قابل لأن تظهر عليه الأضداد دون أن يتغير هي في جوهرية ، وقولم النفس بذاتها لا بكونها حالة في بدن ، ومن الفارق بين الجسم والنفس أن الجسم لا يهل صورة إلا إذا زالت عنه الصورة التي كانت حالة فيه ، لأن الطرفين لا يجتمعان فيه ، أما للنفس لتقبل الصور الأضداد بصفة واحدة .

- أما الليلة الرابعة عشرة فتهباً بمعنى الممكنة وأنواعها ، فهناك سكونة طبيعية وأخرى نفسية وثالثة عقلية ورابعة الهية ، أما الطبيعية فهي اعتدال المزاج في

(٢) قد رأيت خطأ في نظرة الأستاذين محمد أمين وأحمد الزين بحيث جعلت الليلة الثالثة عشرة ، ثم تتابع الخطأ في العدد الفرتيس بعد ذلك إلى نهاية الكتاب بأجزائه الثلاثة - وحفظتها أنها الليلة الثالثة عشرة ، لكننا نؤثر الإبقاء هنا على الترتيب الموجود في الكتاب لسهولة المراجعة .

العناصر الطبيعية ، وأما النفسية فهي ما نسميه بالروية حين تأتي معاملة لحكم البنية ، والسكونية المطلقة هي في التتام للخواطر والاعتبار ، وأما السكونية الالهية ، فلا عبارة عنها على التحديد ، لأنها كالحلم في الانتباه ، وكالاتار في الحلم ، وليست حلما ولا انتباها في الحقيقة ، أي أنها سكونية روحانية .

وبعد ذلك ينتقل الحديث إلى ما تشترك فيه الأمم وما تختلف فيه من صفات وخصائص . فكلها مشتركة في الطبيعة الواحدة . وتأتي بعد ذلك أوجه الاختلاف . فالليونان يميزهم الفكر ، والهند يميزهم الوهم (أي الخيال) والعرب يميزهم الفصاحة ، والغرس الصينية ، والترك الشجاعة .

- وهي الالهة الشامية حثرة حديث فلسفي عن الممكن ، و ، الواجب ، ممكن فيه التوحيدي من ابن يعيش الرافعي رأييه فيها . فقال : « انمكن شبهه بالرؤيا لا بدن له مستقل به . ولا طبيعة يتميز فيها » . وكما أن الرؤيا ظل من ظلال اليقظة . والظل ينقص ويزيد إذا قيس إلى الشخص . كذلك الممكن ظل من ظلال الواجب . وطورا يزيد تشابها للواجب . وطورا ينقص تشابها للممتنع . وطورا يتساوى بالوسط ، والواجب (ويقصد بـه في المصطلح الفلسفي ما هو ضروري الوجود) لا عرض له . لأنه حده واحد . وله نصيب من الوحدة بدليل أنه لا تغير

له ولا خيلولة لا بالزمان ولا بالمكان ولا بالحدثان ولا بالطبيعة ولا بالزعم ولا بالقتل . . الخ . ثم ينتقل الحديث بعد ذلك إلى ثلاثة فلسفية أخرى . هي التفرقة بين العقل والحس . فالأول ثابت والثاني متغير . ومما قاله في ذلك أن العقل يوصف بشهادة الحس . وكذلك الحس يوصف بشهادة العقل . . إلا أن شهادة الحس للعقل شهادة العبد للمولى . وشهادة العقل للحس شهادة المرئى للعبد . و . العقل يحكم في الأشياء الروحانية المبنية الشريعة من جهة الصور الرفيعة . بالقياس إلى الحواس التي تتعلق بالمقاسدات البائذات المتغيرات . وبعد ذلك أنتقل الحديث إلى مسائل لغوية .

- وفي الليلة السادسة عشرة حديث عن الجبر والقدر ، تعليقاً على كتاب العامري المعنون « أنفاذ البشر من الجبر والقدر » .

وبهذه الليلة انتهى الجزء الأول من كتاب الامتاع والمؤانسة .

- وبدأ الجزء الثاني بالليلة السابعة عشرة . وفيها بحث لغوي عن الكلمات التي على وزن تفصيل (يكثر التاء) وتفعال (يفتح التاء) .

ثم ينتقل الحديث فيها عن أخوان الصفا . ويقال أن هذا هو النص الوحيد الذي كشف لنا عن أفراد هذه

الجماعة التي ألقت « رسائل أخوان الصفا » المشهورة في تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ثم نقله القفطي ، وعن القفطي نقله كل من كتبوا عن أخوان الصفا ، وعن هذه الجماعة الفلسفية يقول التوحيدى هنا : « وكانت هذه العصبة قد تألفت بال عشرة ، وثباعت بال صداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قرّبوا به الطريق إلى الفردوس يزعمون أنه والمصير إلى جنته . وذلك أنهم قالوا : الشريعة قد بنيت بال جهالات ، واختلطت بال ضلالات ولا سبيل إلى فصلها وتطهيرها إلا بالفلسفة . . . وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، ومنظروا حمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة ، علميها وعمليها ، وأقرّبوا لها فهرستاً ونسجوها رسائل أخوان الصفاء وخلان الوفاء . وكتبوا أسماءهم . . . »

عقب على تلك التوحيدى بذكر بعض الآراء في تلك الرسائل . ومنها ما يدحض قولهم في أن الشريعة من الفلسفة ، لأن الشريعة وحى الهى ، فصلم بها ولا نعلها ، وهي لا تخضع للمقايير ، ولا تشبه العلم الطبيعى ولا علم الهندسة . ولا تحتاج إلى المنطق ، وعند الاختلاف على شيء في العقيدة لا تلجأ إلى العلم ، فأين الذين من الفلسفة ؟ وابن الخضر أثنى خوذ بالوحى النازل من الشيء المأخوذ بالرأى الزائل ، والعقل وحده لا يكفى ولا بد معه من وحى ينزل على نبي ، والشئ فوق الفيلسوف .

ثم يورد أبو حيان رد القسطنسي على هذا كله ،
 « فالشريعة طب المرضى والفلسفة طب الأصحاء » - ثم
 رد الحريري على القسطنسي في مقارنة الشريعة بالفلسفة ،
 ويورد كذلك رأي أبي سليمان للنطقي القائل بأن الشريعة
 والفلسفة كليهما حق ، « من أن تكون أحدهما مأخوذة من
 الأخرى » . وقد تجتمع الشريعة والفلسفة في رجل واحد
 وقد تظهر كل منهما على حدة .

وينتقل الحديث بعد ذلك إلى استطرادات في الحكمة
 وفي خصائص الحيوان وغير ذلك .

- والليلة الثامنة عشرة حديثها سجون وهزل .

- والتاسعة عشرة فيها السؤال حكيمه فريقت على
 الوزير .

- والحدرون تشتمل على أحاديث شبيهة .

- والليلة الحادية والعشرون تشتمل موضوع
 الغناء والموسيقى ، فلماذا تكثر الموسيقى في القتل ؟ وفيها
 حديث عن حاشي السمع والبصر .

- وأما الليلة الثانية والحدرون فقد دار الحديث
 فيها حول موضوع الفلسفي عريض ، من موضوع الجزئي
 والكلّي وإدراكهما والحكمة بينهما ، ومن أروع ما قاله
 أبو حيان في ذلك - نقله عن أبي الحسن المصمري -

• الكلّي مفترق إلى الجزئى . لا لأن يصير بتوسيطه
مملوفا . بل لأن يصير بتوسطه موجودا . والجزئى
مفترق إلى الكلّي . لا لأن يصير بتوسطه موجودا . بل
لأن يصير بتوسطه مملوفا (أى أن الكلّي بحاجة إلى
الجزئى ليتجسد فيه وجودا فعليا . والجزئى بحاجة إلى
الكلّي ليندمج) .

ومما فاده في الكلّي والجزئى أيضا أن • ما هو أكثر
تركيبا فالعسى التوى على إثباته . وما هو أقل تركيبا
فالعلل تخلف على ذاته .

وفي هذه اللمحة أيضا حديث عن مشكلة التوحيد
والكثير . وهي مشكلة معروفة في الفلسفة . وذات علاقة
بالكلّي والجزئى . وفيها أيضا حديث عن أنواع الخطاب :
خطاب العاقل للعاقل . وخطاب العاقل للأحمق . وحديث
عن • العادة • . وحديث عن الفخر ومعناه المصحيح . فليس
الفخر على قوة المال . بل هو على كثرة الشهوات ولنكثر
للمال .

- وفي اللبلة الثالثة والعشرين روايات عن النبي
عليه السلام .

- وفي الرابعة والعشرين أحاديث عن النصارى
والنبيات : أين تكون مواطنها وما حياتها ؟ ثم حديث عن
الفرج والنفس .

وأما حديث الليلة الخامسة والعشرين فمعتظارة
بارعة فيها موازنة بين النظم والنثر ، فبعد مقدمة طويلة
عن كون الحديث في موضوع النظم والنثر كلاماً على
كلام ، والكلام على الكلام صعب . . . لأنه يدور على
نفسه ، ويلتبس بعضه ببعضه ، ولهذا شق النثر وما أشبه
النثر من المتطرق ، وكذلك النثر والشعر .

ثم رويت آراء تحبذ النثر وتاضل به على الشعر :
فالنثر أصل والنظم قرعة ، والكتب المنزاة منشورة ،
والوحدة أظهر في النثر منها في الشعر ، والنثر طبيعي
والشعر صناعي ، وترتيب الكلام في النثر لا يحتاج إلى
تكليف ، والنثر من قبل العقل ، ونجوم السماء منشورة ،
والأخبار النبوية نثر .

وبعد ذلك رويت آراء في تفضيل الشعر ، فله صناعة
تقتصر على القلة ، أما النثر فله وسع الجميع ، والنظم
صالح للغناء والحداء ، وشواهد للتصو واللغة لا توجد
إلا في الشعر ، والشعراء هم الذين ظفروا بجموع
الخطباء .

وتختم المناورة برأي معتدل ، فنكل من الشعر
والنثر فضائله ، ولكل منهما بلاغة .

وفي الليلة السادسة والعشرين مجموعة من
أمثلة .

وتتدرج القليلة الحايضة والعشرون مجموعة من قصص وتوارد قبل كلها على اثر الحسابات في مجرى الحياة ، ثم تحكي عن المال والطيرة .

— وفي الثامنة والعشرين ذكر طائفة من اصحاب الطرب .

وفي التاسعة والعشرين وفي الثلاثين بحسب الغريبة .

— وفي الحادية والثلاثين كلام في الحرب ، وكلام في العقل والجنون .

وبهذه اليلة ينتهي الجزء الثاني .

— ويبدأ الجزء الثالث بالحديث عن الطعام والطعامين ، فيدور الحديث في تلك خلال ثلاث ليال : بنية الليلة الحادية والثلاثين ، ثم الليلة الثانية والثلاثين ، والثالثة والثلاثين .

— وفي الرابعة والثلاثين حديث عن العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، فلا بد للحاكم العاقل أن يفتح صدره لما يقوله الناس عنه ، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم هي كالعلاقة بين الوالد والولد . . . الخ .

— وفي الخامسة والثلاثين حديث في الجبر والاختيار ، وفي الحب والشهوة ، وفي النفس والروح .

- وتصور الثلاثة الثلاثة الفلسفة والثلثون حول بحوث

لخرصة .

- والسابعة والثلثون حول بعض الصفات الخلقية

وتحديد عناصرها المكونة لها .

-- وفي الثامنة والثلاثين . والتاسعة والثلثين .

والأربعين توليد واحاديث فيها لفظة وسرعة خاطر .

ويختتم الكتاب برسالتين يوجههما أبو حيان

للتوحيدى الى الوزير ، ثم يرجاء برجه الى أبي القوفاء

الهندس برسلا مستفيذا .

نصوص مختارة

١ - في خصائص العرب :

ان العرب اهل بلد قفر ، ووعشة من الناس
احتاج كل واحد منهم الى وحدته الى فكره ونظره وعقله ،
وعلموا ان معاشهم من نبات الأرض ، فوسموا كل شيء
بسمته ، ونسبوه الى جنسه ، وعرفوا مصلحة ذلك في
رطبهم ويابسهم ، وأوقاته وأزمته ، وما يصلح منه في الشاة
والبحير ثم نظروا الى الزمان واختلافه ، فجعلوه ربيعها
وصيفها ، وأطيطا وشتيها ، ثم علموا ان شربهم من
الصماء ، فوسموا لذلك الاتواء ، وعرفوا تغير الزمان

فجعلوا له منازل من السنة ، واحتاجوا الى الانتشار في الأرض ، فجعلوا نجوم السماء أملة على أطراف الأرض وانظارها ، فسلكوا بها البلاد وجعلوا بينهم شيئا يقتنون به عن المنكر ، ويرغبهم في التحصيل ، ويتجنبون به على العناء ، ويحضهم على الكارم ، حتى أن الرجل منهم وهو في فج من الأرض يصف الكارم فما يبقى من نعمتها شيئا ، ويصرف في ثم المصارى فلا يقصر ، ليس لهم كلام الا وهم يحاضون به على اصطناع المعروف ثم حفظ الجار ويستقل المال وابتقاء المعامد كل واحد منهم يسعى ذلك بعقله ، ويستخرج به بلذاته وفكرته ، فلا يتعلمون ولا يتأجلون ، بل نحائز (أي طبايع) مؤمنة ، وعقول عارفة ، فلذلك قلت لكم : انهم أهل الأمم ، لصحة الفطرة ، واعتدال البنية ، وجواب الفكر وذكاء الفهم . (ج ١ - ص ٧٢) .

٢ - صور لبعض رجال الفكر في عصره :

(وردت في حديث الليلة الثانية)

... أما شيخنا أبو سليمان (المنطلي) فإنه أتاهم نظرا ، وأقرهم غوصا ، وأصلحهم فكرا ، وأظفرهم بالفرر ، وأرقهم على الفرر ، مع تنطع في العبارة ، ولكفة ناشئة من العجبة ، وقلة نظر في الكتب وفسوط استبعاد بالخاطر ، وحسن استنباط للعويص ، وجسرة على تفسير الرموز ، ويخل بما عنده من هذا الكنز .

وأما ابن زرجة فهو حسن الترجمة ، صحيح النقل ، كثير الرجوع إلى الكتب ، محمود النقل إلى العربية جيد الوفاء بكل ما أجل من التوضيح ، ليس له في بقيقها منقذ ، ولا له من لغزها مأخذ ، ولولا توزع فكره في التجارة ، ومعبته في الربح ، وحرصه على الجميع ، وشبهته على المنع ، لكانت قريحته تستجيب له ، وغائمه تنزل عليه ، ولكنه مبدد متدد ، وهب الدنيا بعمى ويحجم .

وأما ابن الخمار فمصحح ، صلب الكلام ، مديد النفس ، طويل العنان ، مرضى النقل ، كثير التدقيق ، لكنه يخالط الدرة بالبررة ، ويضد السمين بالغث ، ويزرع الجديد بالثرث ، ويثين جميع ذلك بالزهو والسلف ، ويزيد في الزقم والسول ، فما يجديه من الفضل يرتجعه بالنقص ، وما يعطيه بالطلب يسترده بالعنف ، وما يصفيه بالصواب ، يكرهه بالأعجاب ، ومع هذا يصرح في كل شهر مرة أو مرتين .

وأما ابن الصبح ، فلا ينزل بفائهم ، ولا يسقى من انائهم ، لأنه موثوق في الحفظ والنقل والنظر والجدل وهو بالتبع أكسبه ، وإلى طريقة لدمي الرب ، والذي يحمله عن مراتبهم شيئا : أحدهما بلادة فهمه ، والآخر حرصه على كسبه .

وأما مسكويه فقير بين أغنياء ، وعين بين أبناء ،
لأنه شاذ ، وأما أعطيت في هذه الأقسام ، صفو الشرح
لا يصاغوجي ، والاطيفوريان من تصنيف صديقنا
بالري ، قال : من هو ؟ قلت : أبو القاسم الكاتب غلام
أبي الحسن العامري ، وصححه معي . . .

فقال (الوزير) : يا عجباً لرجل صاحب ابن
العبيد أبا الفضل ، ورأى من كان عنده ، وهذا خطه !
قلت : قد كان هذا ، ولكنه كان مشغولاً بطلب الكيمياء مع
أبي الطيب الكيميائي الرازي ، معلوك الهمة في طلبه
والحرص على أصابته ، مفتوناً بكتب أبي زكريا وجابر
ابن حيان ، ومع هذا كان إليه خدمة صاحبة في خزانة
كتبه ، هذا مع تقطيع الوقت في حاجاته الضرورية
والشهوية ، والعمر قصير ، والمصاعبات طائفة ، والحركات
دائمة والغرض يروق تأتلق ، وأوطار في غرضها تجتمع
وتتفرق ، والنفوس على فوائدها تنوب وتشتري ، ولقد قلن
العامري خمس سنين جمعة ، ودرس وأملى وصنف
وروى ، فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة ، ولا روى
مسألة ، حتى كأنه بينه وبينه سد ، ولقد تجرع على هذا
القواني الصاب والعلقم ، ومضغ بقمه حفظل الندامة في
نفسه ، وسمع بأننه قوارع الملامة من أصدقائه حين لم
ينفع ذلك كله وبعد ، فهو زكي حسن الشعر ثقي اللفظ ،
وإن بقي فعماء يتوسط هذا الحديث ، وما أرى ذلك مع

كلفه بالكبرياء ، ولتلقى زمانه وقد دفعه رقبته في خدمة
السلطان ، واحترافه في لبخل بالدينق والقبراط والكسرة
والخرقة ، نوره ياق من مدح الجود باللسان ، وايثار الشح
بالفعل ، وتعميد الكرم بالقول ومفاوخته بالعمل ، وهذا هو
الشقاء المصوب على هامة من بلى به والبلاء المصوب
بناحية من غلب عليه

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٤٩٤٥

ISBN — 977 — 01 — 4416 — 9